(١)

بين مصر والعراق في ميدان العلاقات الثقافية

بين مصر والعراق خصائص بلدانية مشتركة تولدت عنها طباع وأمزجة انسانية متقاربة فهذه ارياف مصر في سقي النيل ارياف سهلية مستوية ، ومثلها في تلك السهولة والاستواء ارياف العراق وطبيعة التربة في الريفين المصرى والعراقي واحدة تقريباً فهي تربة خصبة أو هي خليط من الرمل الناعم والطين تكونت من مخلفات الانهار في القطرين ، ولا شك ان هناك خصائص يختلف فيها هذا البلد عن ذاك ، فمناخ العراق اكثر جفافاً واقل رطوبة مما عليه الحال في مصر ولكنهما على كل حال يشتركان في كونهما معدودين من الأقاليم الحارة ويلاحظ ان المصري اذا حل في ريف العراق أدهشته مظاهر الشبه بين ملامح المصريين والعراقيين في السحن والالوان وفي مقاطع الاعضاء احياناً ، فالسمرة غالبة على الوان السكان في القطرين خصوصاً في الارياف ، وفي سكان الاقاليم الجنوبية او اقاليم الصعيد مشابه كثيرة من العراق والعراقيين في لهجاتهم ومنطقهم مضافاً الى الوانهم وملامحهم ومهنهم وهي زراعية غالباً ، وبهذا يتميز سكان الوجه القبلي في مصر فيما يتميزون به .

(١) احتفل بافتتاح مؤتمر مجمع اللغة العربية السنوي في دور انعقاده الحادي والثلاثين صباح الاثنين ١٣ شوال سنة ١٣٨٤ — ١٥ شباط سنة ١٩٦٥ وذلك في مبنى محافظة القاهرة ، وشهد الاحتفال اعضاء المجمع العاملون من المصريين والاعضاء الممثلون للاقطار العربية . العراق ، المغرب ، لبنان ، تونس ، سورية ، اليمن واستغرقت مدة المؤتمر اسبوعين عقد خلالها تسع جلسات عرضت وناقشت فيها مجموعات من المصطلحات في شتى العلوم والفنون والقيت بحوث لغوية وادبية وتاريخية غير قليلة ، وقد اسهمت في هذه الدورة ببحثين بحث موضوعه « البلوى في كتابه الف باء » وبحث آخر موضوعه « بين مصر والعراق في ميدان العلاقات الثقافية » .

هذا وفي فترات التاريخ شواهد قاطعة على ان الحضارات الاولى ولدت على ضفاف أنهار البلدين دجلة والفرات والنيل . وحسبنا من معـــالم هذه الحضارات في العراق « اور » و « بابل » و« نينوى » وفي مصر « طيبة » و« منف » ، وفي فترات التاريخ ايضاً شواهد اخرى على ان الشعوب في غير هذين البلدين نسجت على منوال قدماء العراقيين والمصريين في بناء حضاراتها وفنونها في الهندسة خصوصاً هندسة الري والزراعة .

التشبث بالتربة :

ومن الخصائص المشتركة بين العراقيين والمصريين التشبث بالتربة وكراهية التحول او الهجرة عنها، والى الثروة الـكامنة في سقي الرافدين وسقي النيل، والى سعة العيش ووفرة النعمة مرد ذلك التشبث بالارض، ويلاحظ ان عدد نفوس المصريين تضاعف خلال نصف قرن او نحو ذلك ومع هذا قلّ عدد النـازحين من المصريين الى الخارج ومثلهم في ذلك العراقيون ، ولهذا الضرب من التعلق او التشبث بتربة الوطن نتائجه من التفاني بحبه ، والاعتزاز بالانتسـاب اليه والتناغي بمحامده .

ومن الخصائص المشتركة بين مصر والعراق كثرة الرحلة اليهما في سبيل طلب العلم وذلك لاستقرار جمهرة من الحفاظ والأئمة في البلدين خلال العصور . وكثيراً ما نجدهم يقولون في معجمات المحدثين والرواة : (لفلان رحلة الى العراق والديار المصرية) وليس من النادر مرور طلاب العلم والعمل ايضاً في رحلاتهم من الاندلس والمغرب على مصر وذلك في طريقهم الى العراق او الى المشرق ، نقول ليس من النادر ان يزوروا القاهرة والاسكندرية سواء اكان ذلك في ذهابهم ام ايابهم ، وما اكثر الامثلة على ذلك في كتب التاريخ . فكل الطرق الى العراق من المغرب كانت تمر على الاسكندرية او على الفسطـاط او القـاهرة وما اكثر رحلات رجال العلم والعمل بين مصر والعراق ، فابن الهيثم المهندس البصري شد الرحال من

البصرة الى القاهرة واقام في الجامع الازهر تحدوه الرغبة في ضبط فيضان النيل، واقامة سد في اعالي الوادي للغرض المذكور . وعبد اللطيف البغدادي قصد مصر لبث آرائه في الفلسفة والطب ، وصفي الدين الحلي صاحب الديوان هاجر الى القاهرة وعاش في ظل الدولة الارتقية واتصل بوزرائها واعلامها ورحب به المصريون واكرموا وفادته ، ولما علموا بان هذا الشاعر العراقي المشهور لم يجمع ديوان شعره رغبوا في جمع الديوان فلبى طلبهم وجمعه في القاهرة كما تشهد بذلك مقدمة الديوان . وقد طبع اكثر من مرة .

قبيلة عراقية تنتقل بأسرها الى مصر :

قصة هذه القبيلة العراقية المصرية من القصص النادرة وهي مسرودة بعنوان (سويقة العراقيين ، في كتـــاب « خطط مصر للمقريزي » [1] فهو يقول : هذه السويقه بمدينة الفسطاط ، وانما عرفت بذلك لان قريبا الازدي وزحافا الطائي — وكانا من الخوارج — خرجا على زياد بن ابيه بالبصرة فانهم زياد بهما جماعة من الازد وكتب الى معاوية يستأذنه في قتلهما ، فأمر بتغريبهم عن أوطانهم فسيرهم الى مصر ، وأميرها « مسلمة بن مخلد [2] » وذلك في سنة ثلاث وخمسين وكان عددهم نحواً من مائتين وثلاثين ، فأنزلوا بالظاهر وكان اذ ذاك طرقا فأراد ان يسد بهم درب الموضع فنزلوا بالموضع الذي يقال له (كوم سراج) وكان فضاء فبنوا لهم مسجداً واتخذوا سوقا فسمى « سويقة العراقيين » . هذا ما قاله المقريزي عن سويقة العراقيين ، ولنا ان نقول ان حكام العراق يومئذ اصابوا في اختيار مصر منفى لتلك القبيلة العراقية البصرية لما بين البيئة في كل من البلدين او الموضعين من خصائص

---

(١) الخطط ٣/١٢٣ وانظر صفحة ٨٠ من الكتاب « عن رحبة وزير بغداد » وصفحة ٣٤ عن (الاوبراتيه) او « العوبراتية » من القبائل التي تنتسب الى المغول وقدرحات الى مصر من العراق .

(٢) مسلمة بن مخلد الانصاري ولى مصر لمعاوية ويزيد ابنه خمسة عشر ســـنه وتوفى وهو على ولايتة سنة اثنتين وستين تجد ترجمته مفصلة في صفحة ٣٨ من كتاب الولاة والقضاة للكندي .

مشتركة . ويستفاد من التأمل في كتب التاريخ ان الهجرة الى مصر خاصة من العراق كانت معروفة في احداث غير قليلة ، من ذلك غزو المغول للعراق في القرن السابع وغزو تيمور للعراق ايضاً في القرن التاسع ، وفي اعقاب هاتين الحادثتين هاجر جماعة من علماء العراق الى مصر حيث رحب بهم حكامها من المماليك ، والغالب أن هجرة العلماء العراقيين خاصة وخصوصاً الى الديار المصرية تفاقمت بعد غزوتي المغول الاولى والثانية ، والاولى كانت غزوة هولاكو في منتصف المائة السابعة أما الثانية فهي غزوة تيمور في منتصف المائة التاسعة ، كما يستفاد من تضاعيف كتب المؤرخين ، هذا ومن حق دولة المماليك هذه أن تفاخر الدول بأنها ردت المغول على اعقابهم واوقفتهم عند حدود مصر بل عند حدود سورية ، وكانت سورية يومئذ تابعة لدولة المماليك .

انتقال خلافة العباسيين من بغداد الى القاهرة :

ولما انقرضت الخلافة العباسية في بغداد باستيلاء التتار عليها في منتصف القرن السابع الهجري ، التجأ بقايا السيوف من بني العباس الى مصر في عصر المماليك ، ومن هؤلاء العباسيين الامير احمد بن الظاهر . وجدد المماليك بيعة رمزية لاكثر من واحد من هؤلاء الامراء العباسيين اللاجئين ، ولقبوا بالقابهم المعروفة في دار الخلافة ببغداد ، حتى ان سلطنة المماليك في مصر لم تعد شرعية الا بتقليد من احد العباسيين اللاجئين الى مصر ، ولو كان لا حول له ولا قوة .

ومما هو جدير بالذكر أن مماليك مصر وضعوا تحت امرة احد اللاجئين من العباسيين جيشاً مصرياً كبيراً لاستخلاص العراق من ايدي التتار ، وقد زحف الجيش من مصر والشام الى الشرق واسترد بعض المدن العراقية الواقعة على نهر الفرات مثل « عانة » و « هيت » غير انه اندحر في واقعة حاسمة بعد ذلك استمات فيها المغول ، وفي هذه الواقعة فقد الخليفة ولم يعثر له على اثر . هذا ومن اراد الوقوف على اخبار هذه الخلافة العباسية المصرية

الجديدة فسيجدها في مآخذها من كتب المؤرخين المصريين المتأخرين ، مثل المسالك لابن فضل الله العمري ، والخطط للمقريزي ، وحسن المحاضرة للسيوطي الى غير ذلك . هذا وفي تضاعيف كتاب « وفيات الاعيان » للقاضي ابن خلكان نبذ او نتف ممتعة عن تاريخ العلاقات الثقافية بين مصر والعراق فهذا الكتاب من المآخذ الحسنة في هذا الباب ، ومن المآخذ التي لا يستغنى عنها في تاريخ هذه العلاقات كتاب « الانساب للسمعاني ، وكتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وتاريخ مصر لابن يونس المصري الذي عول عليه السمعاني فيما كتبه عن رحلات المحدثين المصريين ، واكثر من النقل عنه في كتاب الانساب .

مظاهر التعاون الثقافي بين البلدين :

ادلينا في الفصل الماضي بشواهد على ان العلاقات الثقافية بين البلدين قديمة بل هي عريقة في قدمها يرجع بعضها الى عصور الدولتين الاموية والعباسية فكانت لطلاب العلم من المصريين رحلاتهم الى بغداد او الى البصرة في سبيل طلب العلم . ومن الامثلة على ذلك رحلة « ابي بكر الحرقي » ، وذلك في عصر « هارون الرشيد » ولم تنقطع هذه العلائق ، ولم تقف تلك الرحلات على توالي العصور .

ولما انشئت المدارس الحديثة في الاقطار العربية المنسلخة عن الدولة العثمانية واصبحت العربية لغة التعليم فيها بدلاً عن التركية كان لمصر فضل لا ينكر في مدّ هذه الاقطار بما تحتاج اليه من الكتب المدرسيه والمراجع والمآخذ الكبيرة ، وقد رأينا الطالب العراقي يقرأ العلوم الرياضية والطبيعية اذ ذاك في الكتب التي يقرؤها الطالب المصري وتخرجها دور الطباعة المصرية هذا مضافاً الى فريق كبير من المدرسين الذين انتدبتهم حكومة مصر يومئذ بناء على طلب العراق لتولي مناصب التدريس والادارة في تلك المدارس العراقية الحديثة .

ولما عنى العراقيون بتأليف كتبهم المدرسية بعد ذلك وجدناها حافلة بالنصوص والمحفوظات لذويها من الشعراء والمترسلين المحدثين من المصريين ، كما عنى الاساتذة المربون في مصر نفسها من ناحية اخرى بتحفيظ طلابهم مثل تلك القطع والنضوص لذويها من المترسلين والشعراء العراقيين مضافاً الى التعريف بهم وايراد نبذ تتعلق بأحوالهم وسيرتهم ، ولهذا الاسلوب من اساليب التعاون المشترك في وضع مناهج التربية والتدريس اثره البعيد في ارساء دعائم الوحدة الثقافية المنشودة بين البلدين .

مما تقدم يتضح لنا ان التعاون الثقافي او العلمي بين مصر والعراق كان وما زال وطيد الاركان مهما اقيم في سبيله من عقبات او نصب في طريقه من حبائل واشراك ، فالعراقيّ اذا انزوى في خزانة كتبه يجد نفسه وكأنه يعيش في بيئة مصرية كما ان المصري اذا اشتملت عليه مكتبته يجد نفسه امام جمهرة من الاعلام العراقيين فلا مناص للعراقي من ان يتمثل في خزانة كتبه صورة جمال الدين ابن هشام وجلال الدين السيوطي والشيخ خالد الازهري وامثالهم متصدرين للاقراء ، اما المصري فلا مفر له من لقاء مقدّر مع الفراهيدي ، وسيبويه والمبرد والقالي الى عدد كبير من الائمة والمصنفين العراقيين منتصبين للتدريس او التأليف .

المؤتمرات :

وقد اقيم في العراق اكثر من مهرجان او مؤتمر مشترك بين العراقيين والمصريين وذلك منذ عام ١٩٤٦ الى ايامنا الاخيرة ، ونوقشت في هذه المؤتمرات قضايا مهمة من قبيل توحيد مناهج تدريس اللغة العربية والشؤون الاجتماعية والجغرافية والتاريخ التربية ووتوحيد المصطلحات العلمية .

المؤتمر الطبي العاشر :

عقد هذا المؤتمر سنة ١٩٣٨ ، في مبنى الكلية الطبية ببغداد وكان في الواقع مهرجاناً قومياً

منقطع النظير ، شهده ممثلون عن وزارة المعارف المصرية ، وعن المجمع اللغوي ، وعن الجمعية الطبية المصرية ، وترأس المؤتمر الدكتور علي ابراهيم ممثلا للجامعة المصرية ، وكان في ضمن الوفد المصرى الى المؤتمر الشاعر المدرس علي الجارم ممثلا للمجمع اللغوي ، وله في هذا المؤتمر قصيدة رائعة قوبلت بمظاهر الاستحسان في محافل الادب العراقية .

بغـــداد يا بلد الرشيد ومنارة المجـــد التليد

من سجايا المصريين الاصيلة :

وكان للشيخ احمد الاسكندري مدرس العربية المشهور بحث لغوي ممتع في المؤتمر ، كما كان نشاط الاطباء والاساتذة والادباء المصريين مثار الاعجاب ، فهو اول مؤتمر طبي عربي حديث يعقد في العراق . ولم ينس المصريون في المؤتمر ما جبلوا عليه من حب النكتة والتظرف فزعموا ان الاستاذ الاسكندري ادعى ان (الاوكسجين) من صيغ التثنية وان مفردها (اوكسيج) وانه يعرب اعراب المثنى . الى غير ذلك من الفكاهات .

وفي هذه الفترة من تاريخ العراق الحديث كان جل اساتذة الكليات والمعاهد العالية وفي مقدمتها كليات الحقوق الهندســـة ، البيطرة ، التربيـــة التي كانت تدعى (دار المعلمين العالية) مصريين نذكر منهم الدكتور محمود عزمي ، الدكتور محمود سعد الدين الشريف ، الدكتور احمد فهمي ، الدكتور عبد الوهاب عزام ، عبـــد الحميد العبادي ، الدكتور زكي مبارك ، الدكتور احمد امين ، احمد حسن الزيات ، حسن سيف ابو السعود ، عبده حسن الزيات ، عبد العزيز محمد ، والدكتور علي عبد الواحد وافي . وجاء بعدهم الدكتور عبد الرزاق السنهوري الذي اسندت اليه ادارة كلية الحقوق ، واختار للتدريس فيها جمهرة من خيرة المدرسين ، وكان يحاضر الطلبة في الكلية ، وظهرت له مجموعة محاضرات طبعت في بغداد .

محمد رضا الشبيبي

تحية المؤتمر

كلمة الاستاذ الشيخ محمد رضا الشبيبي رئيس المجمع العلمي العراقي
في حفلة افتتاح مؤتمر مجمع اللغة العربية في دورته الحادية والثلاثين .

السيد الرئيس

حضرات السادة الاجلاء

تحية مباركة وبعد ، يسعدني جداً ان اشهد هذا الاحتفال الذي يقام لافتتاح دورة جديدة من دورات مجمع اللغة العربية هي الدورة الحادية والثلاثين ، شاكراً لكم دعوتكم حاملاً اليكم تحية ابناء العراق الذين يشاطرونكم غبطتكم وشعوركم في هذا اليوم المشهود . هذا وقد تناهى الى علمكم ولا شك ما يتصل بتكوين المجمع العلمي العراقي الجديد، ويسرني الآن ان اضيف الى ذلك ان مجمعنا في العراق لايني في تعزيز صلاته وتوثيق رابطته بالمجامع العلمية وفي الطليعة منها هذا المجمع مجمع اللغة العربية ، فالمباحثات والمراسلات دائرة بين المجمعين مؤكدة على التعاون والتآزر حاثة على تنسيق الجهود في كل ما يتصل بشؤون الثقافة والآداب العربية .

من اجل ذلك حبذت ان يتناول بحثي في هذه الدورة بالذات موضوع العلاقات الثقافية التي قامت بين مصر والعراق قديمها وحديثها ، ومهدت للبحث بفصل عن الخصائص الاقليمية المشـــتركة بين البلدين ، وآخر أوضحت فيه مظاهر تلك العلاقات الوثيقـة في مهرجانات

ومؤتمرات كبرى تنوعت اغراضها واهدافهـــا واسهم فيها فريقـان من ذوي المواهب والكفايات بين مصريين وعراقيين وجسدوا في اكتاف الديار المصرية مرة ، وفي اكناف البلاد العراقية تارة اكنافاً ممهدة للقيام بالبحوث والدراسات ، والواقع ان تلك المؤتمرات والمهرجانات معروفـــة في العالم العربي ، وفينا الآن من شهد اكثر من مؤتمر منهـــا أو مهرجان .

هذه ايها الاخوان لمحة عن محتويات البحث الذي اعددته لهذه الدورة معنياً فيه بذكر مظاهر العلاقات الثقافية الوثيقـة التي قامت بين بلدينا في القديم والحديث والتي أرجو لها اطراد النمو والازدهار على توالي العصور ان شاء الله .